



في الحروب المغولية في العراق والشام، إذ كانت القوات الأرمنية بقيادته ضمن قوات هولاكو التي أخضعت بلاد الروم - وأسقطت دولة الخلافة العباسية في بغداد [٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م] ، وكذا ضمن القوات المخترقة الحلب ودمشق ، كما شارك الأرمن في مقاومة قطر في عين جالوت [٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م] التي انهزم فيها المغول بقيادة كيتبوغا ، وفي سائر حروب المغول في الشام ، مما كان سبباً مباشراً لتتكون سلطين المماليك بهم . ففي أثناء انشغال المغول بحروبهم الداخلية قام الأرمن بمشاركة صليبي أنطاكية بالإغارة [سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١] على القوعة وسرمين كرد فعل لغارات المماليك على أنطاكية - التي كانت عمقا استراتيجيا للأرمن في الشام - فتصدى لهم حاكم حلب . كما أغار هيثوم الأول - كذلك - على القوعة ومعرة مصرين و سمرين سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م] ، واتجه إلى أنطاكية وهولاكو لتدعيم التحالف معهما ، وبواسطة هولاكو تمت مخالفة سلاجقة الروم - في هر قلة - والزحف على الشام للاستيلاء على مرعش وعينتاب ، فطاردتهم القوات المملوكية من حمص وحماه وحلب ، وكرد فعل لهذه التصرفات كانت الحملة المملوكية على أرمينية الصغرى - في عهد الظاهر بيبرس - [ سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م] بعد الفراغ من صفد ، و وفاة هولاكو الذي أصيب بالصرع وظل يعاوده حتى وفاته عن نحو ستين عاما ، وانشغال أباقا ومغول فارس بمحاربة بركة خان والقبيلة الذهبية أو ما عُرف بمغول القفجاق]، وقد سبقها التفاوض فيما بين بيبرس وهيثوم الأول على تسليم بعض الحصون والقلاع ، لكن رفض هيثوم تسليم تلك القلاع خوفا من المغول ، وذهب إلى تبريز طالبا نجدة المغول الموجودين لدى سلاجقة الروم، فاخترقت القوات المملوكية كيليكيا واحتلت سيس حاضرة المملكة وقتلت في المعركة - قرب دريساك - ابنه ثوروس وأسرت ابنه الآخر - وولى عهده ليون ، فلما عاد هيثوم الأول إلى مملكته وجدها خرابا ، وبدلاً من أن يساعد من كان معه من المغول والروم انشغلوا بنهب ما تركه المماليك ، وعلى أثر ذلك كان تحييد أرمينية الصغرى عن مساعدة أنطاكية التي استولى عليها المماليك في العام التالي ، مما أفقد الأرمن الاتصال المباشر بالصليبيين وقد أحاط بهم المماليك جنوبا ، وبعد مراسلات فيما بين هيثوم الأول والظاهر بيبرس - وقد أرسل إلى البابا كلمنت الرابع سفارة تستجدي دعمه فلم يحصل منها سوى الوعود - أطلق ابنه هيثوم من الأسر لقاء فك أسر سنقر الأشقر وتسليم بعض القلاع الحدودية بهسنا ودريساك ومرزبان ورعيان وشيخ الحديد ، مما ساعد في الإحاطة بالأرمن : شرقا ، ومنع اتصالهم بالمغول، وبعدها ضرب زلزال مدمر مده مملكة أرمينية الصغرى [ سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م] ، واعتزل هيثوم الأول الحكم وترهب في أحد الأديرة إلى أن مات في أكتوبر ١٢٧٠ م] ، وتوج بعده ابنه ليون الثالث ، فارتحل إلى أبغا للتقوي به ، واتجه نحو تعمير مملكته وتنشيط التجارة في ميناء إياس أثناء انشغال المماليك بتصفية الوجود الصليبي في الشام . ونتيجة لكثرة فساد قلعة كينوك [الحدث] ومدينتها والتصدي للقوافل التجارية ، مع قطع سيس الحمل المقرر للمماليك ونقض ليون الثالث لما تقرر من هدنة ، كانت حملة المماليك الموجهة إلى أرمينية الصغرى [ سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٧ م] التي قادها الظاهر بيبرس بنفسه ، بعد أن تصدت قواته للمغول في البيرة لشغلهم عن مساعدة الأرمن [ بل وتوجه إلى بلاد الروم ليجلس على كرسي ملكها بقيسارية - المشمول برعاية المغول ] . كما توجهت حملة أخرى في عهد ابنه السعيد بركة خان سنة ٥٦٧٧ / ١٢٧٨ م خربت في قلعة الروم وسيس ، وعلى أثرها شارك الأرمن بقيادة ملكهم ليون الثاني المغول في الإغارة على الشام والعبث به ، وفي معركة حمص [ سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م] ، حيث كان في ميمنة منكوتمر المواجهة الميسرة قلاوون ونتج عن انتصار قلاوون عليهم في هذه المعركة تحطيم الجيش الأرميني في كمين نصب له ولم يسلم منه سوى ستمائة فارس، وانشغل المغول بترتيب أوضاعهم الداخلية على أثر موت أباقا وإعلان تكودار إسلامه وتسميه بأحمد واغتياله وتولى أرغون الإيلخانية ، ومهادنة الصليبيين القلاوون ، فتيسر للمماليك اجتياح مملكة أرمينية - - انتقاما لمشاركتهم المغول في موقعة حمص - وتدمير ميناء إياس [سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م] فأدرك ليون الثاني استحالة مساعدة المغول له في التصدي للمماليك ، مع فقدته حماية أنطاكية له فعقد هدنة مع المماليك أمدها نحو إحدى عشرة سنة [سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م] مقابل دفع جزية سنوية للمماليك مقدارها نحو مليون درهم فضة ، وإطلاق الأسري والتزام الحياد في صراع المماليك مع المغول والصليبيين. ليتفرغ قلاوون لمنازلة طرابلس والاستيلاء عليها ، ولم يبق أمامه بعدها سوى عكا - التي أعد لاجتياحها - مما زاد من خوف الأرمن، وعندها طالبهم قلاوون بتسليم مرعش و بهسنا - شرقي كيليكيا - لتحكمهما في طريق المواصلات القادمة من الشمال إلى الشام ، فاستنجد هيثوم الثاني بالبابا نيقولا الرابع ويملك فرنسا ، ولم يحصل منهما إلا على وعود - فقط - في مقابل تعديل مذهبه ليقرب من مذهب كنيسة روما ، مما أدى إلى انقسام داخلي وحرب أهلية .ولما أسقط الأشرف خليل عكا سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١] صار الأرمن وجها لوجه مع المماليك ، فذكرهم الأشرف خليل بالوفاء بما عليهم من الحمل ، فتوجه هيثوم الثاني إلى أرغون نشدانا لمساعدة لم يكن في مقدوره الوفاء بها - لانغماسه في مشكلاته الداخلية - وقرر الأشرف خليل الزحف على قلعة الروم والاستيلاء

عليها سنة ٦٩١ هـ / ١٢٩٢ م] وكانت مقرها الحامية أرمنية مغولية دائبة الإغارة على الشام وقطع الطريق، كما كانت مقرها الجاثليق الأرمن ، فلما تملكها الأشرف صارت - وقد تسمت بقلعة المسلمين - مركزاً متقدماً لرصد تحركات المغول. وتبع ذلك مواصلة المماليك الاستيلاء على باقي القلاع الأرمنية لتحكمها في طريق المواصلات ، حيث طالبهم الأشرف خليل بتسليم بهسنا. لكن أدى اغتيال الأشرف خليل سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م) وما تبعه من حوادث اضطراب دولة المماليك تسهيل تحالف أرمنية الصغرى مع البيزنطيين والمغول، فوجه المنصور لاجين حملة إلى كيليكيا تقرر على أثرها أن يكون نهر جيحان حداً فاصلاً فيما بين المماليك والأرمن ، مع تسليم كل ما عليه من قلاع وحصون جنوية وكانت أحد عشر قلعة وحصناً. فلما غزا غازان الشام - بتحريض من بعض أمراء المماليك الفارين إليه - [سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م] شاركه الأرمن في هذه الغزوة وانهزم المماليك أولاً في معركة وادي الخازندار في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية ، واستباح هيثوم الثاني صالحية دمشق ، لما كان في قلبه من المماليك وحرب المغول الشام ، واستعاد الأرمن القلاع جنوب نهر جيحان ، فقرر المماليك - بعد انسحاب غازان ضرب مملكة أرمنية الصغرى بغارات سريعة خاطفة ، فلما عاد غازان إلى الشام في السنة التالية بمشاركة الأرمن تصدى لهم المماليك وهزمهم في معركة شقحب ، ومات غازان تلو ذلك كمداً بعد أن نزف الدم من منخرينه عندما علم بالهزيمة عن ثلاثة وثلاثين عاماً . وهدأت غارات المغول على الشام لانشغالهم بترتيب أوضاعهم الداخلية ، وهادن أبو سعيد بهادر خان - آخر الإيلخانيين العظماء - المماليك وصالحهم سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٢ م ] ، وانشغل مغول فارس بأموهم الداخلية . بينما صار الطريق بعد معركة شقحب مفتوحاً إلى كيليكيا فاتجه المماليك لتأديب الأرمن واستعادة القلاع وتقرير القطيعة المقررة عليهم سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م ] ، ومعاضطراب دولة المماليك - فيما بين السلطنتين الثانية والثالثة للناصر محمد بن قلاوون - وتملك أوشين للأرمن عطل [سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م ] القطيعة وأغار على الرحبة ، فعقد الناصر محمد بن قلاوون - في سلطنته الثالثة - هدنة مع مغول فارس ليتفرغ للأرمن ، وخرجت إليهم حملة نهبت سبب وخربت ميناء إياس، وقعت على أثرها هدنة فيما بين المماليك وليون الخامس ، ملك أرمنية الصغرى سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م بمقتضاها التزم الأرمن بدفع مليون ومائتي ألف درهم فضة